

تأثير المناخ على الأنشطة الاقتصادية ومساكن أهل وادي سوف خلال القرن 19م

أ.بوترعه بلال - جامعة الوادي

المخلص:

شغلت مسألة تأثير الظروف البيئية والمناخية على أنشطة وسلوك الإنسان فكر وكتابات العديد من العلماء والفلاسفة قديما وحديثا، فقد قدم ابن خلدون في القرن 14م ميلادي إنتاج فكري ضخم تمثل في المقدمة تناول فيها أثر عوامل البيئة والمناخ على الإنسان ومختلف أنشطته .

لقد كان للعوامل المناخية في وادي سوف أثرها المباشر على أنشطة أهل المنطقة قديما و حديثا، فقد سعى أهل سوف جاهدين لمحاولة تطويع هذه الظروف ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ومحاولة التأقلم معها حتى يضمنوا البقاء والاستمرار وتمكنوا بذلك من إثبات وجودهم ومارسوا الزراعة والصناعة والتجارة، وشيدوا المباني والقرى وكانت لهم بصمتهم المميزة وطرازهم الفريد في العمران.

سأحاول من خلال هذا المقال تركيز الاهتمام على بعض من الأنشطة الاقتصادية والعمرانية لأهل سوف خلال القرن 19م وانعكاس المناخ والبيئة على مختلف هذه الأنشطة ومحاولة أهل سوف جاهدين للتأقلم مع هذه التغيرات البيئية والجغرافية حتى تمكنوا من فرض وجودهم وتشبيد حضارتهم وازدهرت المنطقة بفضل كل ما قدموه. تمهيد:

يقول فيكتور كزن Victor cousin "أعطني خريطة لدولة ما معلومات وافية عن موقعها ومناخها ومائها ومظاهرها الطبيعية الأخرى ومواردها وبإمكاني في ضوء ذلك أن أحدد لك أي نوع من الإنسان يمكن أن يعيش في هذه الأرض، وأي دولة يمكن أن تنشأ على هذه الأرض و أي دور يمكن أن تمثله هذه الدولة في التاريخ ."

فالبيئة لها أثر كبير في أنشطة الإنسان وإنجازاته.

لقد كان لأهل الصحراء إسهاما كبيرا في تشييد صرح العديد من الحضارات الإنسانية على مر التاريخ، فقد تحدى الإنسان الصحراوي بعزيمته وشجاعته على

الرغم من قلة إمكاناته وبساطتها قساوة البيئة وظروفها الصعبة ليثبت وجوده ويصنع تاريخه وتشيد حضارته.

تعتبر مدينة وادي سوف من المدن الصحراوية القديمة التي عرفتها الجزائر فقد دخلها الرومان في القرن الأول للميلاد وبنوا بها مدن وقرى، إلى غاية بداية الفتوحات الإسلامية في أفريقيا بقيادة عقبة بن نافع.

بدأ بعدها ظهور الممالك العربية البربرية الإسلامية الأولى في شمال وجنوب الجزائر، وتعتبر قبيلة عدوان أولى القبائل العربية التي استقرت بوادي سوف في القرن 7م، لتبدأ العديد من القبائل الأخرى في الوفود إلى المنطقة كأولاد جامع والربيع والفرجان.

لقد سعت هذه القبائل ومنذ وصولها إلى منطقة سوف إلى الاستقرار والعمل الدؤوب من أجل البقاء، فقد عرفت هذه القبائل الزراعة والتجارة والصناعة التقليدية البسيطة. من الصعب الحديث عن تاريخ سوف الاقتصادي بمعزل عن واقعها الجغرافي والظروف البيئية والتي لها تأثير بالغ على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لأهل سوف وهذا ما سأوضحه في هذا المقال .

1. الصحراء الجزائرية:

تغطي الصحراء أكثر من ربع مساحة سطح القشرة الأرضية، وتشغل مساحة تقدر بـ 45.5 مليون كيلومتر مربع، وتكون في معظمها على هيئة صحاري جافة أو شبه جافة أو صحاري باردة، وتتجمع معظم هذه الصحاري في المناطق شبه الاستوائية بين خطوط العرض من 30 شمالاً إلى 30 جنوباً.

والصحراء من التضاريس الجغرافية الموجودة في كل قارات الأرض، وهي موجودة أيضاً على كواكب أخرى، "وتتوزع الصحاري في العالم على طول قطاعين متقطعين، أحدهما إلى شمال خط الاستواء والآخر إلى جنوبه وتوجد عموماً في المناطق الداخلية للقارات" ⁽¹⁾، وقد وضع العرب للصحراء نحواً من أربعين اسماً لكن العرب ميّزوا بين أنواع كثيرة من الصحاري. واستعمل العرب في أشعارهم ألفاظ (صحراء)، (قفر)، (بيداء)، (فيا في)، وأشتق الاسم من الفعل صَحَرَ، "يقال صَحَرَ اللبن: طبخه. وصَحَرَتِ الشمسُ: أملت دماغه.

والصَحْرَاءُ هي الفضاء الواسع الذي لا نبات فيه" ⁽²⁾.

وتدخل الصحاري في العرف الجغرافي تحت ما يطلق عليها أسم الأقاليم الجافة، وتعرف بأنها المناطق التي تتميز بندرة الماء، والجفاف (ندرة الأمطار)، وقلة الغطاء النباتي أو انعدامه كما أنها تعاني عجزاً في التوازن المائي (المفقود أكبر من الوارد

إليها)، و تعرف الصحراء بأنها أراض جافة رملية أو هي جزء عقيم أو قاحل من الأرض، وتخلو من المجاري المائية الدائمة ، شبه قاحلة، شبه جرداء، ولا يختلف التعريف الجيولوجي كثيراً عن التعاريف السابقة ، فالصحراء منطقة يبلغ معدل سقوط الأمطار 25 سنتيمتراً أو أقل سنوياً وبالتالي تكون خالية من الحياة النباتية ، بحيث لا تسمح بوجود عدد ملموس من السكان، وهي بقاع مغطاة برواسب قارية من الرمل والحصى كما في صحراء الربع الخالي على هيئة كثبان رملية، أو يغطيها الجليد الجاف والركامات الجليدية كما في الصحاري القطبية.

وتحتل الصحراء الكبرى الجزء الأكبر من شمال إفريقيا، وهي أكبر الصحاري الحارة في العالم بمساحة تفوق الـ 9 ملايين كم مربع، وهي منطقة قاحلة مقفرة تغطي جزءاً كبيراً من وسط إفريقيا وشمالها، وتكاد تمثل حاجزاً طبيعياً بين شمال إفريقيا ووسطها.

وتمتد الصحراء الكبرى من الغرب إلى الشرق أي من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، على طول 3000 كلم، ومن الشمال إلى الجنوب أي من البحر الأبيض المتوسط إلى بداية المناطق الاستوائية ، على طول 1500 كلم ، وتغطي نحو 90% من مساحة الجزائر وهي منطقة سهلية قليلة الارتفاع وتتكون من صحاري رملية (العرق) وحجرية (حمادة)⁽³⁾.

وتزخر الصحراء الجزائرية في مناطق كثيرة بأعداد من السكان ينتشرون عبر أرجائها الواسعة ، فمنهم المستقرين في تجمعات سكانية حضرية ، أو شبه حضرية والبعض الآخر يمارس حياة بدوية قوامها الرعي وتربية الماشية والإبل وتميز⁽⁴⁾ حياتهم التثقل الدائم أو الموسمي بحثاً عن الكلأ .

وبين ثانيا هذه الصحراء تتكون الواحات وهي في معظمها مناطق خصبة وتجري تحتها العيون والجداول ويتوفر عندها النبات نسبيا وفرص العيش والنشاط ، ومن هذه المناطق منطقة "وادي سوف" التي لا تعتبر منطقة طبيعية بقدر ما هي بشرية ساهم في تكوين شكلها نشاط الإنسان بقدر كبير بمشاركة العوامل الطبيعية مما أضفى عليها شكلا خاصا نابعا من حاجة السكان⁽⁵⁾ ، ويوحى كل تغير بوجود حاجة ، وأن هناك هدف وغاية لأي اثر سواء في تغير شكل وسطح المنطقة أو طريقة العيش أو طبيعة العمران .

2. الإطار الجغرافي لوادي سوف:

1. الخريطة والموقع: تقع وادي سوف في الجنوب الشرقي للوطن تحدها من الشمال ولايات (تيسة، خنشلة، بسكرة) ومن الشرق الجمهورية التونسية بشريط حدودي طوله 300 كلم، أما من الجنوب ولاية ورقلة وغربا ولاية بسكرة والجلفة و ورقلة، تتربع وادي سوف على مساحة إجمالية تقدر بـ 44.585 كلم²، ويسكنها حوالي 562.973 نسمة (حسب إحصاءات سنة 2000).

تتوزع ولاية الوادي على 12 دائرة إدارية وتنقسم إلى واديين مختلفين هما :

- منطقة وادي سوف وتقع وسط العرق الشرقي وتظم 22 بلدية.
- منطقة وادي ريغ وتقع في الأراضي المنبسطة وتظم 08 بلديات.

2. مظاهر السطح: يتسم إقليم وادي سوف بمظهرين رئيسيين هما :

العرق: تقع مدينة الوادي - أغلب مساحتها - في العرق الشرقي الكبير، والعرق عبارة عن رمال ناعمة ذات ألوان بيضاء وصفراء تتقاذفها الرياح على حسب اتجاهاتها مشكلة بذلك ما يعرف بالكثبان الرملية⁽⁶⁾ ، وهي مرتفعة قد تصل إلى 200 متر وتعرف بالغرود⁽⁷⁾ .

العرق الشرقي الكبير، وهذا ما سمح بوجود المنخفضات والأودية بين الكثبان الرملية.

3. المنخفضات والأودية: حيث تعتبر منطقة وادي سوف أكثر المناطق انخفاضاً في المناخ السائد: قبل التطرق إلى المناخ الذي يسود مدينة وادي سوف تجدر الإشارة أن المناخ العام الذي يسود إقليم العرق الشرقي الكبير الذي تعتبر الوادي جزءاً منه، هو المناخ الصحراوي الجاف الذي يمتاز بالحرارة الشديدة صيفا والبرودة القاسية شتاء وهو حار طيلة أيام السنة، وتصل درجة الحرارة صيفا إلى 50 درجة مئوية، أما في الشتاء فقد تصل درجة الحرارة إلى ما دون الصفر.

والجدول التالي يوضح متوسط درجات الحرارة في سوف في الفترة الممتدة بين (1920 - 1928) (8) :

الشهور	جانفي	فيفري	مارس	أفريل	ماي	جوان	جويلية	أوت	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر
الفترة بين 1920 - 1928	17.4 درجة	20.2 درجة	24.2 درجة	29.1 درجة	34 درجة	39.3 درجة	43.1 درجة	42.2 درجة	37.7 درجة	30.6 درجة	23.1 درجة	17.8 درجة

• **الأمطار:** تعرف مدينة وادي سوف بشحة أمطارها بسبب بعد المدينة عن البحر ويعتبر خليج قابس بتونس أقرب بحر للمنطقة ويبعد حوالي 350 كلم² وعادة ما تسقط الأمطار في وادي سوف بين شهري نوفمبر وفبراير بمتوسط سنوي يقدر بـ 80.30 ملم⁽⁹⁾.

• **الرياح:** تعرف مدينة الوادي حركة هوائية نشطة ناتجة عن جفاف المنطقة وندرة تساقط المطر وانعدام خصوبة التربة وتشهد الوادي أنواع مختلفة من الرياح نذكر منها (10):

الشهيلي (القبلي): وهذه الرياح تكون جنوبية وجنوبية شرقية يطلق عليها **السيروكو** وهي رياح تمتاز بالحرارة الشديدة والجفاف.

البحري (الشرقي): وهي رياح صيفية منعشة، يهب على وادي سوف من جهة الشرق آتيا من خليج قابس وغالبا ما يكون في المساء ويستمر إلى الليل.

الغربي: وهو رياح باردة .

3. تأثير المناخ على الحياة الاقتصادية لأهل سوف في القرن 19 م:

"إن البيئة هي الوسط الذي يعيش فيه الإنسان ويمارس فيه نشاطه ويحصل منها على حياته من غذاء وصحة ومأوى ومختلف الحاجات" (11) ، وعلى هذا الأساس فالبيئة ليست مجرد عناصر مادية أو طبيعية معزولة فقط ، وإنما هي مجموعة الموارد المادية والاجتماعية والثقافية المتاحة التي يسعى الإنسان من خلالها إلى إشباع حاجاته البيولوجية ويكون نمط من العلاقات في تفاعله مع غيره وكذلك كل ما يمكنه من العيش والبقاء والتطور وتأمين المستقبل له ولخلفه.

لقد كان لقسوة الطقس في سوف تأثيرا كبيرا على حياة الإنسان وأنشطته في هذه المنطقة، ويعرف مناخ هذه المنطقة بالحرارة مرتفعا صيفا والبرودة الشديدة شتاء ، وما زاد هذه الصعوبة شدة هو بعدها عن البحار حيث يقع أقرب بحر لها بمدينة عنابة على بعد 390 كلم ، وخليج قابس بتونس على بعد 305 كلم.

وقد حاول سكان وادي سوف التكيف مع بيئتهم الصحراوية المعروفة بصعوبة مناخها وقساوة طبيعتها ، والتي أثرت كثيرا في حياة السكان الاجتماعية والاقتصادية ، وفيما يلي سنتعرف على أوجه تأثير الظروف البيئية على الأنشطة الاقتصادية والفكر العمراني لأهل سوف في القرن 19 .

1.3. أثر المناخ على النشاط الزراعي لأهل سوف في القرن 19 م:

يعتبر اكتشاف الإنسان الأول للزراعة أعظم حدث في تاريخ البشرية، وأستطاع الإنسان بفضلها من توفير متطلبات عيشه الأساسية، فقد أسست المجتمعات الزراعية البسيطة بإكتفاءها الذاتي وكان أول الأمر الإنتاج من أجل الاستعمال لا من أجل البيع⁽¹²⁾. وقد عرف المجتمع السوفي الزراعة منذ القديم إلا أن نشاطه الزراعي هذا واجهته العديد من الصعوبات التي تحداها أهل سوف، فوجود مدينة الوادي في إقليم العرق الشرقي والذي يتسم بالمساحات الكثبانية الرملية الكبيرة، جعل من ممارسة الزراعة والفلاحة مطلباً صعب المنال وضرباً من التحدي الصعب.

● **غرس النخيل:** يعتبر غرس النخيل أبرز الأنشطة الفلاحية التي عرفها أهل سوف منذ أمد طويل، وتعتبر هذه الشجرة مباركة وميمونة عند أهل سوف عبر مر التاريخ، وقد دخلت هذه الشجرة إلى وادي سوف من الشرق الأوسط لبلاد العرب⁽¹³⁾. تمثل النخلة و التمور الغذاء الأساسي للسكان ومصدر رزق لهم، فقد أشار الرحالة المغربي عبد الله بن محمد العياشي في كتابه الرحلة العياشية إلى إهتمام أهل سوف قديماً بغرس النخيل والعناية بها قائلاً: (هي خط من النخيل مستعرض في وسط الرمل قد غلب على أكثره، وفيه بلاد عديدة، وماؤها طيب غزير قريب من وجه الأرض، أخبرني أهل البلد أنهم إذا أرادوا غرس النخيل بحثوا في الأرض قليلاً حتى يصلوا إلى الماء، فيغرسونها بحيث تكون أصولها في الماء، ثم يردون عليها الرمل فلا تحتاج إلى السقي أبداً، ويعالجونها بأبعاد الإبل والغنم وغيرها، فيضعونها في أصولها ولولا ذلك لماتت ...⁽¹⁴⁾)

إلا أن زراعة النخيل في منطقة وادي سوف كان أمراً شديداً الصعوبة لعدم وجود موارد مائية سطحية، وهذا ما دفع سكان المنطقة إلى حفر أحواض واسعة الإمتداد تبلغ مئات الأمتار طولاً وعرضاً تصل أعماقها إلى 16 متر، والتي تتطلب من السوفي التحلي بالصبر والفتنة والذكاء حتى يتمكن من حفرها.

ويختلف عمق هذه الحفر على حسب قرب الماء أو بعده، فالغوط في مناطق الجنوب من الوادي باتجاه غدامس تكون أكثر صعوبة كون الحفر قد يصل إلى 15 متر أو أكثر حتى يتم الوصول إلى الماء، في حين تكون في المناطق الشمالية الشرقية أقل من الجنوبية ويصل عمق الغوط في المناطق الشمالية الشرقية إلى 5 - 6 أمتار⁽¹⁵⁾، وهذا ما يفسر تزايد غراسه النخيل في هذه المناطق.

وفور الانتهاء من إعداد الغوط وحضره تأتي المرحلة الموالية وهي مرحلة غراسة الحشان (16)، هذه الأخيرة تغرس على بعد مترين عن الماء، وبعد غرسها يتكفل بسقيها يدويا من البئر إلى أن تشتد وتمتد جذورها وتصل الماء الباطني يتركها الفلاح في رعاية الله ويتوقف عن سقيها، وقد بلغ عدد نخيل وادي سوف سنة 1860 م حوالي 60 ألف نخلة وبلغ العدد 154 ألف نخلة سنة 1883 م (17).

ولا تنتهي معاناة الفلاح السوفي عند هذا الحد بل تأتي بعد هذه المراحل كلها عملية رفع الرملة، وهي العملية الأساسية عند الشروع في إنجاز غوط جديد أو أثناء توسيع الغوط القديم، ويقوم الفلاح بهذه الأعمال لوحده أو يقوم بإستئجار عمال يسمون بـ الرمال، وكانت الوسيلة في إنجاز هذه الأعمال تقتصر على القفة والزنبيل (18).

وقد كان الفلاح السوفي مجبرا للدخول في صراع مريع ضد قوى الطبيعة خصوصا الرياح، حيث تعتبر مكافحة الرمال من المعارك المستمرة التي يخوضها السوفي مع الطبيعة، سعيا إلى المتابعة الدائمة لاتجاهات الرياح لتجنب دفن الغوط خاصة رياح البحري القادم من الشرق والذي يحرك ملايين الأطنان الرملية إلى مزارع النخيل (الغوط) (19)، هذا الأمر دفع بأهل سوف إلى وضع مصدات للرياح لتغيير اتجاهاتها وهذا ما يعرف بالزرب، وهي عبارة عن مصدات هوائية تتكون من جريد النخيل تمنع هذه الزروب الرمال من التحرك تجاه الغوط وتشكل كثبان رملية صغيرة تمنع بمرور الزمن الرمال من الزحف تجاه النخيل.

لقد سعى الفلاح السوفي منذ زمن طويل بكل ما أوتي من قوة أن يقلل من صعوبة وقساوة الظروف الطبيعية والمناخية بأفكاره البسيطة والتي تتطلب جهدا عضليا كبيرا، إلا أن هناك ظروف مناخية لم يستطع مجابهتها كالرياح الساخنة أو ما يعرف بالشهيلي، وهذه الأخيرة التي تتسبب في إتلاف محاصيل التمور بسبب تعرضه للجفاف الشديد.

كما تعتبر الأمطار رغم قلتها أحد العوامل المتسببة في فساد محاصيل التمور خصوصا إذا كانت نزولها في فصل الخريف (أكتوبر /نوفمبر)، وهي الفترة التي تشهد جني التمور وتسبب الأمطار ما يعرف بالخمج (20)، وقد شهدت المنطقة مواسم تمور كارثية تعرف بالخموري (21)، وهذا ما جعل الفلاح السوفي يغطي عراجين التمور بأكياس بلاستيكية، هذه الأخيرة تسرع في عملية نضج التمور إضافة إلى أنها تحمي المحاصيل من التلف والخمار في حال سقوط المطر.

• زراعة النباتات الموسمية (الخضر والفواكه):

لم يكتف أهل سوف بزراعة النخيل فقط، بل كانت لهم زراعات موسمية كزراعة الخضر والفواكه، ورغم بساطة وسائله إلا أن الفلاح السوفي كان يمتاز بالفطنة والذكاء و إستغلال الظروف الطبيعية لصالحه.

فقد أستغل أهل سوف مساحات الأرض تحت النخيل لزراعة متطلباتهم من الخضر وبعض الفاكهة فقد خصصت الجهة الشرقية لزراعة النباتات التي يحتاج إلى أوراقها كالخس وغيره على إعتبار أنها معرضة لأشعة الشمس منذ الشروق إلى غاية منتصف النهار، أما الجهة الغربية من حوض النخيل فقد أستغلها الفلاح لزراعة ما يحتاج لدرناته كاللفت والبطيخ والجزر (22)، وكان يعتمد في سقي هذه الزراعات على البئر والخطارة والماجن والسواقي و الميزاب.

2.3. أثر المناخ على النشاط الصناعي لأهل سوف في القرن 19 م:

إن التكوين الجيولوجي لسوف عبارة عن رمال، فهي بذلك تفتقر لجيوب صخرية من المعادن والمواد الأولية مما جعل المدينة غير مؤهلة لقيام صناعات ذات قيمة (23)، إضافة إلى أن عملية نقل المواد الخام من المناطق المجاورة كان شبه مستحيل بوسائل النقل التقليدية التي كانت متوفرة قديما والمتمثلة في الجمال والبغال.

إلا أن هذه الظروف لم تمنع من قيام صناعات تقليدية في المنطقة، فقد ظهرت بعض الصناعات التقليدية التي زاوجت بين ذكاء أهل سوف وبساطة المواد الأولية المتاحة فأنتجت مصنوعات كان لها دورا فعالا في الخدمات المحلية المنزلية والتي كانت تستمد موادها الأولية من نباتات المنطقة ومزارعها وحيواناتها وصخورها، فمن النخلة تصنع الأواني كالطبق والمثرد والقنينة، و من ليف النخيل تصنع الحبال التي تستعمل للخطارة وحبال حزم الحلفاء والحطب فوق الجمال والبغال، كما يصنع من عصي الجريد قوائم المنسج وعصاة النيرة والحمارة والسدة والدوح.

ومن أصواف الأغنام وأشعار الماعز وأوبار الجمال يتم نسج الملابس والأفرشة وإعداد الخيام، ويتم دبغ الجلود لتصير جاهزة لمختلف الصناعات الجلدية.

أما الحجارة الباطنية فيتم تحويلها بالحرق إلى جبس لتشبيد المباني والمنشآت العمرانية كالمساجد والمدارس والمحلات التجارية وغيرها .

3.3. أثر المناخ على النشاط التجاري لأهل سوف في القرن 19 م:

إن تواجد مدينة الوادي في وسط محيط من الرمال جعلها تعيش عزلة كبيرة عن المناطق المجاورة والبعيدة، إضافة إلى قلة الموارد الداخلية وهذا ما دفع أهل سوف إلى

ممارسة التجارة منذ القديم بحكم الظروف الطبيعية والحياة الصعبة، والتي فرضت عليهم إختراق رمال العرق الشرقي لتوفير حاجيات المنطقة ومتطلباتها وهذا ما جعل الأسعار تخضع لظروف النقل أكثر من خضوعها لمبررات إقتصادية.

كما أن بعد المسافة من جهة ليبيا، فغدامس تبعد 14 مرحلة بالقافلة مع وجود كثبان رملية نحو الجنوب جعل التعامل مع هذه الوجهة التجارية محدودا مقارنة بالتعامل مع التلول في الجزائر وتونس التي لا تتطلب سوى 4 أو 5 مراحل بالقافلة للوصول إليها، كما أن كثبانها الرملية منخفضة (24) مقارنة بكثبان المناطق الجنوبية للعرق الشرقي.

4. تأثير المناخ على المساكن وثقافة العمران في وادي سوف: عرفت مدينة وادي سوف بنمط عمراني متميز حتى سميت بمدينة الألف قبة وقبة، وهذا النمط أملتة الظروف الطبيعية أحيانا وثقافة أهل المنطقة أحيانا أخرى، فالتوسع العمراني للتجمعات السكانية في سوف أواخر القرن 19 وبداية القرن 20 كان في معظمه يتجه نحو الشمال انطلاقا من عاصمة "الوادي" بحكم وجود طبقات التافزة واللوس المستخدمة في البناء بالمناطق الشمالية والشرقية مع صعوبة نقلها عن طريق الدواب لمسافات بعيدة نحو الجنوب، كما أن ارتفاع حجم الكثبان الرملية جنوب سوف لا يشجع على التوسع في زراعة النخيل التي ترافق التوسع العمراني يضاف إليها عمق طبقة الماء²⁵.

أما شكل البناء والعمران في سوف فقد أعتمد على الجبس لكونه المادة المتوفرة بالمنطقة ناهيك عن ملائمة لحرارة الجو، فإمتداد القباب في سوف هو تكيف مع الطبيعة بحيث أنها تتفادى توضع الرمال عليها وتسمح بإنسياب مياه الأمطار لمنع تضرر الجبس والبناء الذي لا يحتمل الرطوبة، كما أن القباب تعكس أشعة الشمس المحرقة وتمنح السكن مساحة تهوية أكبر²⁶.

إن حرارة الجو الملتهاية في سوف صيفا فرضت نوعا من الترحال "الهجرة المؤقتة" لمعظم سكان الحضر في سوف حيث يُغادرون القرى للذهاب صيفا إلى منازل صيفية صغيرة قرب مزارع النخيل طلبا للانتعاش والرطوبة ليلا. وقد عرفت وادي سوف العديد من أنواع المساكن لعل من بينها²⁷:

أ- **مساكن الرحل**: وقد كان يعيش في هذه المنازل البدو الرحل من أهل سوف وغيرهم حيث كانت الخيمة أنسب المساكن لأهل سوف في العرق لسهولة إنشائها وتحويلها، ولا يوجد إلا البعض منها قرب القرى.

والخيمة عبارة عن بيوت من شعر الجمل استعملها أهل سوف كملجأ معتدل في الصيف إضافة إلى أنها توفر الحماية لقاطنيها من الرياح وأمطار الشتاء.

بـ المساكن الريفية: هذا النوع من المساكن يستخدمه شبه الرحل من المتحضرين من أهل المنطقة وأحياناً الرحل في موسم جني التمور، وعادة ما يتواجد هذا النوع من المساكن بالأرياف قرب الغيطان، وقد عرف هذا النوع من المساكن تطورات عديدة عبر الزمن نذكر من أنواعه:

1 _ **دار الكاف:** كانت من أقدم الملاجئ التي استخدمت في سوف ويتم بناؤها من خلال حفرة جانبية في سفوح الكثبان الرملية ذات الأراضي الصلبة، وتكون حيث توجد طبقة التافزة التي لا تسمح بانهيار الملجأ، كما تستخدم دار الكاف لحفظ المنتجات الزراعية في الغيطان.

2 _ **الزريبة:** وهي عبارة عن مسكن مؤقت ومناوب تستخدم من طرف البدو والحضر وتعتبر ملجأ من جريد النخيل نجدها بأعداد كبيرة خاصة في الجنوب ضواحي الوادي بالبياضة وعميش، وتعتبر سكنا وسطا ما بين الخيمة والمنزل، فالرحل الذين هم في طريقهم للتحضر والاستقرار والذين ليس بإمكانهم الحصول على منزل أو لا يتحملون العيش في الأماكن المغلقة لتعودهم على حياة الصحراء يمرون بالزريبة كمرحلة تطور.

3 _ **دار الخزين:** وتستخدم من طرف شبه الرحل في طريقهم نحو التحضر والاستقرار وتمثل دار الخزين مرحلة نحو بناء المنزل، وشيدت من طرف شبه الرحل الذين يستقرون قرب غيطانهم في فصل جني التمور أثناء الخريف وبشكل مؤقت وأحياناً يتم بناء ديار الخزين بجانب بعضها البعض.

4 _ **مساكن الغيطان:** تُبنى من طرف سكان الحضر قرب الغيطان لينتقلوا إليها في الصيف طلباً لاعتدال الجو وكذا في موسم جني التمور، ومساكن الغيطان في الأصل ما هي إلا تطورا لما يُعرف بالزريبة والتي أصبح يُستخدم في بناؤها الجبس وعادة ما تكون عُرفها صغيرة وبقباب وتغوص في الرمال بحولي نصف متر تقريباً طلباً للرطوبة والاعتدال.

جـ منازل الحضر بالقرى والمدن: أهم ما يميز منازل الحضر في سوف القباب بمختلف أنواعها والمنزل الحقيقي في سوف يتضمن بالضرورة فناء مغلق، تصطف حوله الغرف وتُعرف بالديار والمدخل دائماً محجوب عن النظر بواسطة حائط متعرج لكي لا يكشف للأجانب ما يجري داخل البيت لما يكون الباب مفتوحاً، وفي الجهة الجنوبية

للمنزل يتم بناء أقواس مفتوحة للشمال وتُعرف بالسباط الظهر اوي ويخصص للجلوس في فصل الصيف حيث الظل والاعتدال موسم الحرارة ، وأحيانا يتضمن المنزل أقواسا في الجهة الشمالية تُعرف بالسباط القبلاوي ويخصص لفصل الشتاء فالنساء تجلسن في فصل الصيف للقيام بأعمال النسيج تحت السباط الشمالي(الظهر اوي) ليكون العكس في فصل الشتاء.

ويوجد بالمنزل غرفة للمؤونة تُعرف بدار الخزين عادة ما تكون في الجنوب لكي تتلقى أقل حرارة لحفظ الأغذية ، كما نجد حيز خاص بالحيوانات لكون السكان في سوف حتى ولو كانوا فقراء تجد لديهم الماعز والدجاج.

أما المدخل الخارجي للمنزل فيكون متبوعا برواق واسع يسمى السقيفة حيث يُستقبل الضيوف، غير أن الأكثر يسرا بينون غرفة ملحقة بالسقيفة تُعرف بدار السقيفة أو دار الضياف، كما يشمل البيت السوي فناء داخلي يُعرف بالحوش وبئر حوله ²⁸.

أما عن مواد البناء المستعملة في البناء في وادي سوف فهي محلية تمثلت في الجبس، حيث يقومون باستخراج التافزة وحرقتها وتهريسها حتى تُصبح كالدقيق المسحوق ليُصبح جاهزا للبناء .

أما الأبواب فتختلف من عائلة إلى أخرى تبعا للمستوى الاجتماعي للعائلة، فالأسر الغنية تستعمل الأبواب المنقوشة والتي تُجلب من تونس في حين أن الأسر الفقيرة كانت تستعمل الأبواب المصنوعة من جذوع النخل، والمغطاة أحيانا بصفائح من القصدير كما كان يستعمل الجريد وجذوع النخيل في التسقيف ²⁹.

ومن خلال ما سبق نلاحظ أن مفهوم الإستدامة موجود منذ القدم في عمران وادي سوف كما يبدو وقد طبقه أهل سوف في عمرانهم من خلال الإستغلال الأمثل للموارد المتوفرة ومحاولات التكيف مع الظروف المناخية المحلية.

إن نمط العمران يحكي تاريخ المجتمع ويشكل جغرافيته ويعكس أيديولوجيته كما أنه يشارك في صياغة بنية المجتمع وثقافته ³⁰، وتجلت بعض مظاهر هذه البنية والثقافة في تحقيق نوع من التوافق بين التنمية العمرانية من جهة وحاجات السكان من جهة أخرى ومن بينها :

- التقارب بين المتساكنين من أجل الاستهلاك الراشد للمجال مما يعني التقليل من المسافات التي على الأفراد قطعها يوميا للتمكن من قضاء حاجاتهم، وهذا ما نلاحظه في بناء أهل الواد حيث المنازل متقاربة والشوارع متفرعة كالأغصان.

- اندماج الوظائف داخل النسيج العمراني وخلق مناطق سكنية مختلطة قادرة على تلبية أكبر قدر من المتطلبات، فقد كان أهل سوف يستخدمون الساحة الوسطى في الحي السكني كسوق وكمكان للتجمع ولإقامة الأفراح وغيرها.
- تحقيق الأهداف الاجتماعية والثقافية والبيئية للسكان بتوفير الراحة والأمن ومراعاة الخصوصية وسلامة البيئة.

لقد توصلت الأبحاث المختلفة في قطاع مواد البناء استدامة مواد البناء التقليدية كالجبس والطين والأخشاب والتي أستخدمها أهل سوف في البناء ، لكونها نابعة من البيئة وذات ديمومة عالية و خصائص فيزيائية تساعد على العزل الحراري وهي قابلة لإعادة الاستخدام وهذا ما نجده في عمران أهل وادي سوف والذي عرف بالاستدامة والتوافق مع البيئة^{3 1}.

خاتمة:

إن قسوة الظروف المناخية التي ميزت البيئة الصحراوية عبر مر العصور لم تمنع ظهور حضارات انسانية تحدث هذه الصعاب وقاومتها ، فلم يستسلم أهل الصحراء لهذه الصعاب وسعوا جاهدين بكل ما اتيح لهم من مقدرات إلى مجابهة هذه الصعاب. لقد عاش أهل سوف منذ القدم في صراع مريم مع البيئة الصحراوية القاسية في مقابل قلة الوسائل و بساطتها ، إلا أن ذلك لم يمنع اهل المنطقة من ممارسة العديد من الانشطة الاقتصادية كالزراعة والصناعة والتجارة وكان لهم ثقافتهم العمرانية الخاصة التي تجاوبت مع الظروف الطبيعية بروعة طرازها وبراعة اتقانها حتى سميت المنطقة بأحد روائع طرازها وفكرها العمراني مدينة **الألف قبة وقبة**.

المراجع :

1. الأطلس العالمي : بيروت ، لبنان ، مكتبة الصغار ، 1996 .
2. بالهدف بن سالم بن الطيب:سوف تاريخ وثقافة ، مطبعة الوليد ، كوينين، الوادي، الجزائر، مارس 2008.
3. بوجمعة خلف الله: "ملامح الإستدامة في العمارة والعمران التقليدي الجزائري - حالة قصر بوسعادة بالجزائر"، مجلة العمران والتقنيات الحضرية، العدد الثالث، 2008.
4. زقب عثمان ، "الأوضاع الإقتصادية في منطقة وادي سوف 1918- 1947 وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا". رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2006/2005.

5. الكردي محمود فهمي: تأثير أنماط العمران على تشكيل بعض عناصر الثقافة الشعبية، الطبعة الثانية، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، مصر، 2002
6. المنجد في اللغة والأعلام، ط40، بيروت: دار المشرق، 2003.
7. مكايي علي محمد، الإنسان والبيئة والصحة. دار الكتب العربية، مصر، 2003
8. العوامر ابراهيم، الصروف في تاريخ وادي سوف. منشورات ثالة. الجزائر. 2007
9. عودة محمود: أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، دت
10. العياشي عبد الله بن محمد: الرحلة العياشية 1661- 1663، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات، 2006
11. ضيف لزهري: البيئة والمجتمع: دراسة تحليلية للمرض والصحة في البيئة الصحراوية، مطبعة مكتبة إقرأ، قسنطينة، 2010.
12. www.khayama.com/nan/wadsouf.htm
13. ashab.maktoob.com/view/htm
14. [http:// ar.wikipedia.org/wiki](http://ar.wikipedia.org/wiki)



الطابع المعماري السوفي - القباب-



الغوط السوفي صورة من الأعلى



الغوط السوفي



الخيمة السوفية و المنسج



قوافل تجار أهل سوف في رمال العرق الشرقي

الهوامش :

- ¹ - الأطلس العالمي : بيروت ، لبنان ، مكتبة الصغار ، 1996 ، ص 91 .
- ² - المنجد في اللغة والأعلام ، ط 40 ، بيروت : دار المشرق ، 2003 ، ص 417 .
- ³ - الأطلس العالمي : مرجع سابق ، ص 167 .
- ⁴ - إن سكان التجمعات الحضرية التي تنتمي إلى الإقليم الصحراوي بالصحراء الجزائرية أغلبهم ينحدرون من مناطق بدوية أو أنها كانت بدوية حتى السنوات الأخيرة كمناطق الجلفة و الأغواط ، ويسكرة ، و ورقلة ، وغرداية ، والوادي ، وتبسة وغيرها ، وبالتالي نجد أن بعض الممارسات في المجال الطبي داخل الحضر لا تختلف كثيرا عن المناطق البدوية بها .
- ⁵ - ضيف لزهري: البيئة والمجتمع:دراسة تحليلية للمرض والصحة في البيئة الصحراوية، مطبعة مكتبة إقرأ، قسنطينة، 2010، ص 23
- ⁶ - www.khayama.com/nan/wadsouf.htm 16/02/2011-10:30
- ⁷ - بن سالم بن الطيب بالهادف: سوف تاريخ وثقافة، مطبعة الوليد، كوينين، الوادي، 2008، ص:46
- ⁸ - أنظر عثمان زقب: "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف 1918-1947 وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا"،ريالة ماجستير،قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2006/2005
- ⁹ - بن سالم بن الطيب بالهادف: مرجع سابق، ص:47
- ¹⁰ - عثمان زقب: "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف 1918-1947 وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا"،رسالة ماجستير،قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2006/2005، ص:17،18
- ¹¹ - علي محمد مكاوي: الإنسان والبيئة والصحة، دار الكتب العربية، مصر، 2003، ص 21.
- ¹² - محمود عودة:أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، ص: 150
- ¹³ - بن سالم بن الطيب بالهادف: مرجع سابق، ص: 151
- ¹⁴ - عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية 1661- 1663 ، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات، 2006، ص 123
- ¹⁵ - عثمان زقب: مرجع سابق، ص: 19
- ¹⁶ - غرسة فتية يتراوح عمره عمرها بين 3- 6 سنوات يتم فصلها عن النخلة الأم.

- 17 - www.khayma.com 16/02/2011 / 13:51
- 18 - هي عبارة عن قفة كبيرة مصنوعة من السعف تستعمل في رفع الرمال.
- 19 - عثمان زقب: مرجع سابق، ص: 19
- 20 - الخمج: إذا كان العام كثير المطر وارتفعت نسبة الرطوبة في الجو فإن الثمار تترتوي بالماء عند القطميرة فتتفن قبل نضوجها
- 21 - عثمان زقب: المرجع السابق، ص: 19
- 22 - بن سالم بن الطيب بالهادف: مرجع سابق، ص: 156
- 23 - عثمان زقب: مرجع سابق، ص: 20
- 24 - عثمان زقب: مرجع سابق، ص: 20
- 25 - نقلا عن: 17:38. 15/02/2011. ashab.maktoob.com/view/htm
- 26 - عثمان زقب: مرجع سابق، ص: 21
- 27 - ابراهيم العوامر: الصروف في تاريخ وادي سوف ، منشورات ثالة. الجزائر. 2007 ص 99.
- 28 - عثمان زقب: مرجع سابق، ص ص 163 - 165
- 29 - موسوعة ويكيبيديا، وادي سوف. نقلا عن: <http://ar.wikipedia.org/wiki>.
- 16/02/2011 17:00
- 30 - محمود فهمي الكردي: تأثير أنماط العمران على تشكيل بعض عناصر الثقافة الشعبية، الطبعة الثانية، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، مصر، 2002، ص 11
- 31 - خلف الله بوجمعة: "ملامح الإستدامة في العمارة والعمران التقليدي الجزائري - حالة قصر بوسعادة بالجزائر"، مجلة العمران والتقنيات الحضرية، العدد الثالث، 2008.